صورة المرأة في شعر عصر الطوائف واشكاليات النسق المتحول

أ.د. صادق جعفر عبد الحسين الباحثة. شهلة كاظم علي
جامعة ذي قار / كلية الاداب / قسم اللغة العربية

الملخص:

تتناول هذه الدراسه المرأه في شعر عصر الطوائف ولم تقتصر على شعر الشعراء بل شملت المرأه في شعر الشاعرات ايضاً اذ ان المراه بهيئتها الكليه ذات معنى يسير اعدته العناية الالهية لوظيفه قد تكون في غايه السمو والرفعه وهي الحفاظ على النوع البشري واستمراره وانها تكونت بصوره مخلوق شفاف المشاعر وكائن رقيق وهذه ما اجملها قيمه حقيقيه في المجتمع

الكلمات المفتاحية : (الاندلس، القيم ، توظيف الدين ، المرأة ، النسق ، النقد الثقافي).

The image of women in the poetry of the era of sects and the problems of the transformed format

Dr. Sadiq Jaafar Abdel-Hussein, researcher. Shahla Kazim Ali
Dhi Qar University / College of Arts / Department of Arabic Language

Abstract :

This study deals with women in the poetry of the era of sects and was not limited to the poetry of poets, but included women in the poetry of poets as well, as the woman in her total form has a little meaning prepared by divine providence for a job that may be very high and elevated, which is the preservation and continuity of the human species, and that it was formed in the form of a transparent creature with feelings and a thin being, and this is what is the most beautiful real value in society

Keywords : (Andalusia , Values , Employment of religion , Women , Format , Cultural criticism).

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاه والسلام على سيد الانبياء والمرسلين وعلى اله وصحبه الطيبين اللهم لك الحمد عدد خلقك وزنه عرشك ومداد كلماتك وبعد....

ان دراسه المرأه في شعر عصر الطوائف وفي ضوء النساق الثقافي امراً مهماً لمعرفة الاحوال والظروف التي عاشتها المرأة الاندلسيه في مجتمع عرفه بالانفتاح الكبير الذي شمل العنصر النسوي نتيجة الاختلاف البيئة وطبيعتها وما حملته تلك البيئة من عادات وطبائع ، فأمتلاك المرأة الاندلسيه من الصفات ما جعلها تختلف عن نظريتها المشرقيه فخرقت النسق السائد في المجتمعات العربيه و الاندلسيه على وجه الخصوص.

نسق توظيف القيم الاجتماعية

القيمة لغةً:

الانسان في الحياة يعيش وفق قيم معينة وهذه القيم أما أن تكون قيم موجودة يطبقها مباشرة أو هي قيم يسعى للوصول إليها، إذ يعد هذا نوع من انواع النجاح عندما تكون القيمة غاية يريد الإنسان الوصول لها.

إن مفهوم القيم واحداً من تلك المفاهيم التي اصبح لها الرواج، والتي صارت حاضرة في كل التخصصات والمجالات وقد حق لها هذا الرواج والحضور لأهميتها التي شكلت ولا تزال توصف من المعايير والضوابط الاساسية التي تنظم السلوك الإنساني وتحقيق التوازن في ذات الفرد بين ماهو عقلي ونفسي واجتماعي [١].

عندما نقف على المعنى اللغوي لهذه الكلمة (القيمة) نجد لها عدة معانٍ ودلالات وسياقات اجتماعية منها: العمل والأضطلاع بمهمة اصله، ومعناه قام للأمر اذا تولاه ويقال: قام بهذا الأمر إذا اعتنقه، وكذلك قام بفعل كذا أي: أخذ في عمله [٢]، ومن معاني هذه الكلمة هو الوقوف والنهوض وكذلك الانتصاب واصله قام وقومة وقامة وقيام وقوما فهو قائم، ونقول: قام الشخص اي وقف ونهض وانتصب[٣].

تأتي كلمة (قيمة) بمعنى الثبات والدوام ومنه اقام في المكان اتخذه وطناً ولبث فيه واصله قولهم: قام على عهده وعلى الأمر أذ دام عليه ولم يغيره، واقام الشيء، أدامه[٤]، ومن المعاني الاجتماعية التي ترد على هذه الكلمة هو الاعتدال أو الوصول.

وقد وردت لفظة القيمة في القران الكريم بقوله تعالى: (والذين أذا انفقوا ولم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)[٥]، فيكون أصله القوام.

ومن المعاني التي وردت في المعاجم العربية التي تفسر وتدل على كلمة (القيم) أو (القيمة)، تأتي بمعنى الأمر الصحيح المستقيم الذي ليس فيه زيغ أو كذب لذلك كانت القيم، الشيء الذي يتمسكك بها الإنسان[٦].

تأتي القيم جمع قيمة عند ابن منظور، والقيمة هي ثمن الشيء بالتقويم ونقُول: تقوم الشيء! أي: تعدل وتبينت قيمته، وقيمة الشيء أي: قدره وتحديد سعره)[٧].

أما اصطلاحاً، فتعرف القيم بأنها (الحكم الذي يصدره الشخص عن الشيء ما مهتدياً بمجموعة من القواعد والمعايير التي وضعها المجتمع الذي يعيش فيه، ويحدد المرغوب فيه والمرغوب عنه من انماط السلوك)[٨]، فلا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي للقيمة.

عرف "فير سيلد" القيم هي الشيء المعنوي للإنسان الذي تضعه الجماعة موضع الاعتبار ويلاقي مواقف عامة، وقد تكون هذة القيمة ايجابية أو سالبة، وقد تكون وجهات الاشخاص انعكاساً لرأي الجماعة العام نحو القيم الاجتماعية، أو تكون عاملاً مساعداً في التأثير على هذا الرأي وتبدليه أو الموافقة الجماعية عليه[٩]، ونحن هنا سوف نبحث عن القيم الايجابية أو السالبة التي ظهرت من خلال دراسة الانساق القيمية في شعر المرأة في عصر الطوائف.

إن المرأه بهيئتها الكلية ذات معنى يسير اعدته العناية الالهية لوظيفة قد تكون في غاية السمو والرفعة وهي الحفاظ على النوع البشري واستمراره[١٠]، وأنها تكونت بصورة مخلوق شفاف المشاعر وكائن رقيق العواطف، وهذا ما جعل لها قيمة حقيقة في المجتمع فتركت أثاراً لدى الآخر بوساطة شخصيتها واهدافها فمثلت المركز في كثير من جوانب الحياة، وهي بذلك خرقت النسق الثقافي الاجتماعي الذي يجعل المركز والفحولة للرجل ويهمش المرأة في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية.

وما عرف عن الأندلس والانفتاح الكبير الذي عرفت به المرأة الأندلسية بحكم اختلاف هذه الحضارة واختلاف الطبيعة والبيئة الأندلسية المميزة والجميلة، فحملت المرأة الأندلسية من الطبائع والعادات التي كانت فيها مغايرة لنظيرتها المشرقية بشكل كبير[١١].

يوصف المجتمع على أنه نسق اجتماعي عام يحتوي مجموعة من الانساق الفرعية التي شكلت فتولدت عنه مجموعة من الانساق منها: (اقتصادي، علمي، ثقافي، سياسي)[١٢]، وبما أن المرأة كانت جزءاً من المجتمع، فقد شملتها هذه الانساق الثقافية المكونة للمجتمع بصورة عامة،

فهي تارة تبرز وتتعالى وفق نسق يسمى النسق الظاهر، وتختفي وتأفل وراء نسق الاضمار أو ما يسمى بالنسق المضمر.

يمكن لنا أن نلحظ النسق القيمي في شعر المرأة في عصر الطوائف التي رسمها الشعراء آنذاك، فقد كانت المرأة تمثل مكانة سامية في الحياة الأندلسية، ولقد أشار الشعراء إلى تلك المكانة من خلال الاحتفاء بها واظهار القيم التي تتجلى فيها صورة المرأة. فالقيم هي التي تمنح الشرعية للإنسان الحامل لها من حيث القبول أو الرفض [١٣]،إذ مثل النص الشعري واقعة ثقافية كبيرة اودع الشاعر فيها عموماً والأندلسي بصورة خاصة خلاصة تجاربه بالحياة وابرز قيمة ومكانة المرأة وهذا ما صوره ابن حَميدس قي أبياتها الشعرية التي رثى فيها زوجته فقال لها على لسان ولده عمر[١٤]: {البحر }

أيّ خطْبٍ عن قوْسهِ الموْت يرْمي وسهامٌ تُصيبُ منه فتصْمي
يسرعُ الحيّ في الحيــاةِ ببرءٍ ثم يُفْضي إلى الممات بسقمِ
********* *********
لو بكى ناظري بِصَوْبِ دمــاءٍ ما وَفَى في الأسى بحسرةِ أُميَّ
مِنْ تَوَسّدْتُ في حشايا حشاها وأرتدى اللحمّ فيه والجلدَ عظمي
وضَعتْني كرهــــاً كما حملتني وجــرى ثديُها بشربي وطَعمي
********* *********
يــا أبــن أمــي اني بحكمك أبكي فَقْدَ أمي الغداةَ فأبــكِ بحكمي
قُسِمَ الحُزْنُ بينَنَــــا فثبيــرٌ لك قسمُ ، وَيَذْبُــلٌ منه قسمي
لم أقُلْ والأسى يُصَدّقُ قولي جمدتُ عبرتي فلــذت بحلمي[١٥]
ولو أني كففتُ دمعي عليها عَقّني بــرّها فــأصبحَ خصمي

يحمل النص الشعري على نسقين، النسق الظاهر الذي يشمل رثاء الشاعر لزوجته، ويأتي هذا الرثاء على لسان ولده فيحمل هذا الولد حزناً كبير أمه التي غيبها الموت عنه أذا يدعو اخاه إلى

تقاسم الحزن والآسى الذي حل بهما بسبب ذلك الفقد، لذا عبرت القصيدة عن نسق العاطفة عاطفة الأمومة والعلاقة الحميمة بين الأم وأبنها، فالرثاء الذاتي يحمل في طياته نزعة اصلية تكمن في داخل الشاعر(١٦).

اما النسق المضمر فهو القييمة التي تحملها هذه المرأة والمكانة أذا حملت قيمة التربية و المشاق و المتاعب من اجل أبنائها حاملة جنينها حملا ثقيلا بعدها تضعه وتقوم بتربيته والسهر على راحته . فقد حمل النص الشعري على نسق عمل على اضهار مكانة المراة الاندليسية و قيمتها الايجابية في المجتمع .

إنَّ المرأة الأندلسية هي ذات مكانة وقيمة واصبحت بصمة مشرقة في حياة المرأه بصورة عامة، فتجلت بعض النساء في النص الأدبي الشعري الأندلسي مركزاً للقوة والثبات الانثوي، محملة بالحنان و العاطفة و قد تجلت هذه العاطفة و القوة في نص ابن حمديس عندما وصف الشاعر دورها كام في الحياة فكان و لده يشرح في ابيات وضيفة الام وعملها اتجاه بيتها و ابناءها . و كيف توسد واستقر داخل احشاءها الى ان اكتسى عظمه الجلد و اللحم بقدرة قادر و بصبر الام و تحملها لهذا الوضع .

ثم يسترسل في الحديث عن قيمة هذه المراة (الام) وكيف وضعته وخرج لدنيا و تحملت المتاعب في سبيل ذلك ثم ياتي الشاعر بلدليل على مكانة هذه الام و قيمتها و تحملها لهذا لهذا التعب و هو انه بكى دما لما استطاع ان يوفي حقها و يؤدي الذي عليه .

بهذه الصورة وضف الشاعر قيم الامومة و الحنان و الثبات و كلها قيم ايجابية في المجتمع .

وفي نص شعري آخر للشاعر المعتمد بن عباد يتجلى نسق الوفاء (للمرأة) بوساطة القيمة الأنسانية للمرأه الزوجة التي يتحدث عنها الشاعر وتشكل النصيب الأكبر في الصورة الكلية للمرأه الأندلسية(١٧) ومنه قولـــه(١٨): {البحر الطويل}

أدَارَ النَّوى كم طال منكِ تَلَـدُّدي ولَم عُقْتنِي عن دَار أهيَفَ أغْيَـــدِ

حلفتُ به لو قد تَعرَّض دُونَه كُماةُ الأعادي في النَّسيج المسَـرَّدِ

لجرّدت للضرّب المهنَّدَ فـانقضى مُرادي ، وعزماً مثلَ حـدّ المهِنَّدِ

فمـــا حلّ خـلٌّ من فؤادِ خَليلــه محل "اعتماد" مـن فــؤادِ محَّمــد

رسم المعتمد بن عباد صورة واضحة للمرأة الزوجة بوساطة النسق القيمي (نسق الوفاء) ومكانتها العالية في ذاته النابعة من حبه وعشقه لزوجته، إذ كانت العلاقة بينهم علاقة وئام وتلاحم وود واحترام، إذ يبدو الوفاء الذي حمله الشاعر تجاه زوجته من خلال التفاني في سبيلها إلى الحد الذي أنه سوف يدافع عنها بالحسام المهند لدوام تلك العلاقة الزوجية بين الرجل والمراة وتلك التضحية تدل على مكانة المراة في حياة الرجل وسعيه الدائم الى كسب ودها ورضاها .

ويعدُّ عالم الأنساق الثقافية عالم واسعاً وشائك، ويرى الناقد الدكتور عبد الله الغذامي أن الخطاب الأدبي يحتوي على نسقيين أحدهما ظاهر والآخر مضمر[١٩]، وأن الظاهر الذي هو واعٍ ويمكن للمتلقي ان يدركه بسهولة عبر قرينة تدل عليه، وهذا ما وجدناه في الأبيات السابقة للمعتمد بن عباد وما دلّ عليه من كلمة (فؤاد) فهذه المرأه (الزوجة) لها مكانتها وقيمتها الانسانية المتربعة في قلب الزوج إلا أن الصعوبة تكمن في تقصي النسق الثاني (المضمر) إذ يحتاج إلى التأويل، فأنه يكون متخفي بين السطور .

وتلك التضحية تدل على مكانة المرأة في حياة الرجل وسعيه الدائم في كسب ودها ورضاها . ونجد ذلك في قول المعتمد بن عباد عندما يصور لنا الشاعر مدى تعلقه بزوجته وشدة حبه لها فيبالغ في اظهار النسق القيمي فيها إلى درجة انه يرسم لوحة فنية جميلة يمازج فيها بينها وبين الطبيعة[٢٠]، وقولـــه: {بحر الرجـــز}

يــا صَفوتِي من البَشَـرْ يا كوكباً ، بل يا قمــرْ

يــا غُصنــاً ، إذا مشَى يا رشــأً ، أذ نَظَـــرْ

يـا نَفَسَ الرّوضـةِ قـــد هبّت لهـــا ريحُ سّحْـــرَ

يـــا ربَّـــةَ اللّـحظ الـذّي شَـــدَّ وِثـاقـــاَ إذ فَتَـرْ

متى أُداوي ، يـا فِـــدَا كِ السّمـــعُ منّي والبصَرَ

مـــا بفؤادي من جَـوىً بمـــا بفيك من خَصَـــرْ

تشير ابيات الشاعر الى اظهار النسق القيمي الذي هو نسق التعلق بلمراة والميل لها وهو قيمة انسانية تدل على صواب العلاقة بين الرجل والمراة فكان التغزل الذي جاء في النسق الظاهر لهذه الابيات يخفي وراءه انساقا ثقافية متمثلة بلقيمة الانسانية للمراة الحبيبة و الزوجة فهي أمراءه كاملة الاوصاف ذات حسن و جمال ولم يكن يدا من الشاعر الا ان يظهر تعلقه بها . حتى انه من شدة تعلقه بها يفديها بكل ما يملك سمعه وبصره . و بذلك نلاحظ النسق القيمي (التعلق والهوى) يشع بلمكانة المرموقة لصورة المراة الزوجة التي يحملها فؤاد الشاعر فهي القمر و الغزال وقد اسرت قلبه بعيونها فيديها بروحه .

وقد نجد نوعا اخر من النسق القيمي يحمل قيمة التكريم و التشريف للمراة من قبل الرجل وهذا نجده في قول ابن حداد فيقول: (البحر البسيط)[٢١]

صُنْتُ اسمَ إلْفِي فَدَ أَباً لا أُسَمَّيْـهِ ولا أزالُ بإلـــغازي أُعَمَّيْـــهِ

وصاحبِي عَدَدِيٌّ قد رَمَزْتُ بـه بِذِكْرِ أعدادِ ما تَحْوِي مِبِانْيـهِ

فَجَـــذْرُ أَوَّلِـــهِ رُبْـعٌ لآخِـرِهِ وجَـذْرُ آخِـرِهِ رُبْـــــعٌ لِثَانِيْـهِ

وإنَّ ثَانَيـــهُ خُمْسٌ لِثَـالِثِـهِ فافهَمْ فقد لَاحَ لـلأفهام خَـافْيهِ

ان النص الشعري يحمل انساق ثقافية فلنسق الظاهر تمثل بأعراض الشاعر عن ذكر اسم المحبوبة او التصريح به داخل النص الشعري احتراما و تقديرا لها فيجعل الشاعر من كلمات داخل النص الشعرية لغزا لا يستطيع المتلقي ان يفهم عمن يتكلم الشاعر فجاء النسق المضمر خلف هذه

الابيات ليحمل النسق قيمة التكريم و التشريف للمراة الحبيبة فهم اي الشعراء لا يصرحون بذكر الحبيبة و لا يذكرون اسمها مباشرة اذا نظموا الشعر فيها بل يشعر بلكناية اجلالا لها فجاء النص الاندلسي وهو يمثل واقعة ثقافية اودع فيها الشاعر الاندلسي جملة من الانساق الثقافية التي توضح دور المراة وتعزز من مكانتها هكذا تجلت قيمة التكريم و التشريف للمراة الاندلسية عند الشعراء الاندلسين الذين اشاروا الى قدر المراة و علو شأنها و مكانتها عندهم عندما اعرضوا و تحفظوا عن ذكر اسماء عشيقاتهم اجلالا لهن وفي ذلك يقول ابن زيدون[٢٢] البحر البسيط

ما ضَرّ أنْ لمْ نَكُنْ أكفاءهُ شرفَــاً وَفي المَوَدّةَ كــافٍ مِنْ تَكَافِينَــا؟

يا رَوْضَةً طالمَــا أجْنَتْ لَوَحِظَنَــا وَرْداً جَلاهُ الصَّبا غضّاً ونَسْرِينَا

************ ************

لَسنــا نُسَمّيــكِ أجْــلالاً وَتَكْرمَــةً وقَدْرُكِ المُعتَلى عَنْ ذاك يُغْنِينَا

أذا أنفَرَدَتِ وما شُورِكتِ في صِفَةٍ فَحسبُنا[٢٣] الوَصْفُ إيضَاحاً وتَبْيِينَـا

يوجد داخل نص ابن زيدون نسقان ثقافيان احدهما النسق الظاهر الذي يشمل تقدير الشاعر للمراة الحبيبة عندما لا يصرح بأسمها وهو يصرح بهذا الامر عندما يقول لنا (نسميك اجلالا و تكرما) اذا نجد الشاعر قد ربط التصريح بكرم ذكر المحبوبة لينبثق من ذلك نسق القيمة العليا للمرأة الحبيبة و التكريم

و التشريف لها و عدم ذكر اسمها خاصة اذا كانت المحبوبة من وجهاء القوم و ذات مكانة اجتماعية كمحبوبة ابن زيدون .

اذا رفض ابن زيدون ذكر اسمها في النص الشعري و اكتفى ان يصفها بلروضة اي الحديقة الزاهية بلورود .

قد شهد عصر دويلات الطوائف في القرن الخامس الهجري بعد سقوط الخلافة تشيد للقصور و من القصور التي اشتهرت في التاريخ الاندلسي و الادب (قصر مبارك) شيده الامير المعتضد بن عباد و كذلك قصر الزاهي الذي جعله من اجل الخلوة بلجواري.[٢٤]

إذ اشتهر الأمير المعتضد بإستحسانه وشفقه للنساء الجميلات، فكان يملك في القصور الفخمة عدد كبير من الجواري البارعات في الحِسن ذات السحر وهنَّ من مختلف الاجناس الانثوية والملل إذ يبلغ عددهنَّ ما يقارب السبعين، وله من الأولاد نحو عشرين من الذكور ومثلهم من الاناث[٢٥]، أن انشغال الشعراء بهذا العدد الكبير من الجواري ومظاهر اللهو والترف، فضلاً عن الطبيعة الخلابة الجميلة تمتعت بها الأندلس وجمال النساء الذي فاق الوصف كما جاء عند ابن خفاجة بقولـــه[٢٦]: {البحر}

يـا أهــلَ أَنـدلُــسٍ للهِ دَرُّكُــم؛ مـاءٌ وظِــلٌ وانهارٌ وأشجــارُ

ما جنَّــةِ الخُــلدِ إلاَّ في ديارِكُــمُ، ولو تخَّيرتُ هـذا كنـتُ اختـــــارُ

لا تختشُوا، بعدَ ذا، أن تدخلوا سَقراً فليسَ تُدخَلُ، بعدَ الجنَّة، النـــــارُ

مما نتج عن هذا الانفتاح وكثرة الجواري والطبيعة الأندلسية نسق الخروج على القيم الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك .

ومن الغرائب والعجائب عن المرأه الأندلسية وما احدثته من تغيرات وتحدي القيم الاجتماعية السائدة ، فكانت تمثل ثورة على الانساق القيمية السائدة آنذاك ودليل أثرها الكبير على المجتمع، نجد أن الأمير المعتمد بن عباد الذي أمر بالكتابة على الاباريق والجرار التي يقدم بها الخمر في داخل البلاط بكتابة قصائد حبه وعبقريته، فمن هذا المبدأ تبدأ تباشير الانساق القيمية التي ظهرت فيها المرأه، ويظهر لنا النسق القيمي إلى درجة من الغلو وعلو منزلة المرأه الأندلسية الحبيبة حتى بعد موتها، فيخاطب الأديب ابن شهيد الأندلسي محبوبته وهي في القبر عالم الاموات بقصيدة يذكر فيها الأيام التي عاشها وقضى فيها أسعد اوقاته[٢٧] ، فيقول[٢٨]:

يـــا صاحِبِي قُـمْ فقد أَطْلَنَـــا أَنَحْنُ طُـــولَ الـمدَى هُجُودُ؟

فقَـال لي: لن نَقُومَ منهـــــا ما دَامَ من فَوْقِنَـــــا الصَّعِيدُ

نـــذكُرُ كَمْ لَيْلَةٍ لصَوْتَـــا في ظِلَّها والزَّمَـــانُ عِيـدُ؟

وكَـــمْ سُرُورٍ هَمَي عَلَيْنَـا سحابـــــةً ثـــــرّةً تَجُـودُ؟

******** *******

يا ربَّ عَفْواً فأَنْتَ مَوْلـىً قصَّرَ في أَمْـــرِكَ العبيـدُ

نلحظ في النص الشعري احد انواع القيم و هو الوفاء للمراة للحبيبة حتى بعد موتها فجاءت ابيات الشاعر في نسق ظاهر و هو يرثي هذة المرأة الحبيبة و يذكر ايام الهنا التي قضاها معها و هو يصف هذه الايام و المتعة بالقرب منها بانها عيدا من الاعياد و ذلك لشدة السعادة التي كانت تغمره ثم جاء النسق القيمي مختبئ وراء هذه الكلمات مختبة تحت غطاء الجمالي .

اذا ان خطاب الشاعر للمراة الميتة بهذا الالم و الحسرة على فراقها الى درجة تصل به ان يناديها و يطلب منها الخروج من القبر و هو امر مستحيل بلنسبة للميت ما هو الا اختباء للنسق القيمي خلف هذه الكلمات قيم الوفاء و المحبة و الاخلاص للمرأة و هي ميتة فاراد الشاعر ان يبين لنا منزلة المراة العشيقة لديه فجاء النص الشعري بهذه الصورة الجميلة .

فاكثر الشعراء الاندلسين من صفات الغزل و الالم و الشكوى من الفراق و ذكر السهر و الدموع و التذلل للمراة المحبوبة و غيرها الكثير من الصفات التي تدل على قيمة المرأة الاندليسية . لقد مر بنا في مطلع المبحث ان نسق القيم قد ياتي بقيم سالبة في الشعر على نحو ما نراى في ابيات ابن خفاجة فيقول :[٢٩]

وقـبّلتُ مـا بينَ المُحيَّا إلى الطُّلـى؛ وعانَقتُ ما بين التَّراقي إلى الخَّصرِ

وأطـربَ سَجعُ الحَلْـيِ من خيزُرانـــةٍ تميلُ بها ريـــحُ الشبيبـةِ والسُّكـــرِ

غَـــزاليَّـــة الألحاظِ، رِيميَّـــةُ الطُّلى، مُـداميَّـة الألمـى، حَبابيَّةُ الثّغـرِ

تَــرجـح في مَـوشِيَّــةٍ ذَهبيَّــةٍ، كمــا اشتَبكت زُهرُ النجومِ على البَدرِ

تــلاقـي نسيبي في هواها وأَدمُعي، فمن لُـؤلــؤٍ نَظمِ، ومن لُــؤلــؤٍ نَثرِ

وقد خَلعت، ليلاً، علينا يــدُ الهوى رداءَ عِنــــاقٍ مزَّقَتــــه يــدُ الفّجرِ

ولمَّـا تجلَّــى ضَوءُ صُـبحٍ، كـأنــه مَشيبٌ بِفَودِ الليــلِ طـالــعَ من قطرِ

و يوجد في النص الشعري خطابا ثقافيا مفعما بلانساق الثقافية اولهما النسق الظاهر و المتمثل بالتغزل بالمراة ووصف ليلة القاء معها فالشاعر هنا يتغزل على طريقة بعض شعراء المشارقة الذين اوغلوا في وصف لقاءاتهم مع المحبوبة فيصف عنقها او الجيد بجيد الغزال . فيصف خصرها و فمها و يسهب في وصف هذه الليلة التي قضاها بجانب المراة الحبيبة و جاء هذا النسق المضمر مختبئ خلف هذه الدلالات الجمالية البلاغية متوسلا بها لافصاح و الى هذه الفكرة اشار عبد الله القذامي بقوله (ان كل دلالة نسقية مختبئة تحت غطاء الجمالي و متوسلة بهذه الغطاء لتفرس ما هو غير جمالي في الثقافة)[٣٠].

هكذا جاء نص ابن خفاجة وهو يخفي وراءه نسقا يحمل قيم سالبة في المجتمع الا و هو هتك المحرمات . عندما تغزل فاحسن في الغزل و الوصف فيصف ثغرها المبتسم باللون الخمري و هي كالغزال بسحر عيونها و كالضبي من حيث طول عنقها و يشبها بغزال الريم ذي العيون الجميلة و النظرة الساحرة .

و الحق ان هذه الابيات قد تكون ذات قيمة جمالية بواسطة التشبيهات التي جاء بها الشاعر كقوله (غَــزاليَّـة الألحاظِ، رِيميَّـةُ الطُّلى، مُداميَّـة الألمـى ....)

فهي تشبيهات جميلة تخفي وراءها نسقا سالبا قبيحا وهو هتك حرمة المراة و الاساءة الى ما يجب ان تكون مصانة غير مبتذلة

وقد نجد نوع اخر من انواع الانساق القيمية في المجتمع الاندلسي و هو نسق (الاحتفاء بلجواري) . ولأبن حزم الأندلسي نصاً شعرياً وقد سلبت أحدى الجواري قلبه، فيقول[٣١]:

خريده صاغها الرحمن من نور جليت ملاحتها عن كل تقدير

لو جاءني عملي في حسن صورتها يوم الحساب ويم ينفخ في الصور

لكنت أحضى عباد الله كلهم بالجنتين وقرب الخرد الحور

تحتوي الابيات الشعرية على نسقين احداهما ظاهر للمتلقي يتمثل بلتغزل بلحبيبة و المبالغة في تصويرها و هي المرأة الجارية فقد اظهرت الجواري مكانة شعرية لا تقل عن النساء الحرائر فلم يعد تعلق الشعراء مقصورا على النساء ذوات المكانة الرفيعة و على بنات الاشراف بل تعدى ذلك على النساء الجواري الامر الذي يجعل هذه الابيات تضمر لنا نسق قيمي اخر لعله يجوز لنا ان نسميه نسق الاحتفاء بالمرأة الجارية وهذا ما وجد عند شعراء الاندلس عصر الطوائف فهم لا يفرقون بين المرأة الجارية و المرأة الحرة فالاثنان متساويتان في العشق و التكريم و الحب و بذلك تصبح المرأة الجارية مركزا بعد ان كانت هامشا يقصدها الرجال و يتوسلون بها و يقعون بحبها و يطلبون و صالها .

فكان للجواري قيمة عالية ودور كبير في جميع مجالات الحياة الاندليسية السياسية و الاجتماعية و الثقافية فاتغزل شعراء الاندلس بها ونظموا فيها الاشعار مما جعلها في مكانة تحسدها عليها المرأة الحرة لاسيما امهات الخلفاء و الامراء[٣٢] .

هكذا يطفوا النسق القيمي و الانسانية باسمى معانيها عندما تزول حواجز العبودية و الرق . و هكذا شجع الشعراء على بث القيم مثل هكذا قيم تعود سلبا على المجتمع بصورة عامة و على المراة بصورة خاصة . و لم يكن ابن حمديس اقل وصفا لجارية من ابن حزم الاندلسي عندما قال:[٣٣]

وراقصـــةٍ بالسحر في حركاتهـــا تقيمُ به وَزْنَ الغناءِ على حَـــــدّ

مُنغَّمـــــةٌ ألفـــاظَهَـــا بترنّـــــمٍ كسـا معبداً من عزّهِ ذلّةَ العبـــــد

تدوسُ قلوبَ السامعين برَخْصَـــــةٍ بها لَقَطَتْ ما لِلُّحون مـــن العَـــدّ

بِقدّ يموتُ الغُصْنُ مــن حَرَكاتـــه سكوناً، وأين الغُصْنُ من يَرَه القـدا

وتحسبهـا عمَّـــا تشيرُ بأنمـــلٍ إلى ما يلاقي كلّ عضوٍ من الوجـد

بنا لا بها ما تشتكي من جَوّى الهوى وأدمع أشواقٍ مُخَدَّةِ الخـــــــد

ان النص الشعري لابن حمديس يحمل النسق الظاهر الذي يشمل التغزل بالجارية و ذكر محاسنها ووصف جمالها الى درجة كما توتصف المراة الحرة الا ان هذه الابيات قد اضمرت نسق عده الفذامي النسق المضمر الذي يختبئ خلف الكلمات و بذلك تجسد خلف ابيات ابن حمديس النسق القيمي الذي هو الاحتفاء بالجارية وجعلها في مكانة كبيرة داخل المجتمع الاندلسي فيتعالى النسق القيمي عندما وصف الشاعر جارية راقصة و مغنية و هو يجيد بوصفها و اشاراتها الحسنة التي تؤدي ما في بخاطرها و بالتالي يتعذب هو بتيار الهوى فان ذكرت دمعا في كلامها اشارت الى العين و ان وصفت وجدا اشارت الى القلب و هي بهذا تعبر عن تدلل المحبوب و تذلل المحب .

اما الشاعرة مهجة القرطبية فقد جسدت نسق الاحتفاء بالجواري ووضع قيمة لهن فتقول[٣٤]:

ولادة قد صربتِ ولادة من غير بعلٍ فضح الكاتمُ

حَــكت لنا مريم لكنه نخلةٌ هذي ذكـــر قائــمُ

نجد في هذا النص انساق ثقافية اذ جاء النسق الظاهر منها و هو يحمل الهجاء اللاذع فجاء الظلام موجها من المرأة الجارية التي هي في مستوى ادنى من الطرف الاخر المرأة الحرة و الاميرة التي كانت مخصوصة بالكلام اما ما اضمرته هذه الابيات فهو المكانة العالية التي وصلت اليها الجارية و هي المهمشة في المجتمع الامر الذي جعلها تتجراة على سيدتها و هي المركز بالنسبة لها فجاء النسق القيمي الذي هو الاحتفاء بهذه الجارية و تعظيمها و اعطاها المركزية لتهميش المراة الحرة و الاميرة . في أجواء من الحرية الشعرية التي قلبت الموازين واسهمت في تبادل الأدوار الطبقية، عندما قالت الجارية متمادية وشامتة بلفظة ولادة من غير ذكر الألقاب.

الهوامش:

[١]ينظر: مفهوم القيم دراسة دلالية ووظيفية، أوبطيل فاتن: ١١.

[٢]ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط٤، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٤م: ٧٩٧.

[٣]ينظر: المصدر نفسه: ٧٦٨.

[٤]ينظر: القاموس المحيط، الفيروز ابادي، مادة قوم: رقم: ٧٨٧٤.

[٥]القرآن الكريم: سورة الفرقان: ٦٧.

[٦]ينظر: معجم متن اللغة، احمد رضا: ٦٨٤.

[٧]لسان العرب، ج١٢: ٥٠٢.

[٨]الانثربولوجيا والقيم، سلوى السيد عبد القادر: ١٩.

[٩] ينظر: قاموس علم الاجتماع، محمد عاطف غيث، الهيئة المصرية العامة للكتاب: ٥٠٤.

[١٠] ينظر: دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، م٨، مادة (امرأة): ٥٩٥.

[١١]ينظر: المرأة بين المتن والهامش الشعر الأندلسي أنموذجاً، م.م. الهام مفتن علي الجادري، كلية التربية/ الجامعة المستنصرية، مجلة الكلية، ع١، ٢٠٢١: ١٢٩.

[١٢]ينظر: التشابه والاختلاف،د. محمد مفتاح، المركز الثقافي، بيروت: ١٥٦ – ١٥٧.

[١٣]ينظر: علم أجتماع القيم، محمد احمد بيومي: ١٣١.

[١٤]ديوان ابن حُميدس:٤٧٨ – ٤٧٩.

[١٥]جمدت: حملت. ينظر: ديوان ابن حَمْديس: ١٧٩

[١٦]ينظر: الرثاء في الأدب الأندلسي، حسين يوسف خربوش، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة: ٢٦.

[١٧]ينظر: المرأة في الادب الاندلسي (في عصر الطوائف و المرابطين) ، محمد صبحي اسعد :٤٠

[١٨]ديوان المعتمد بن عباد: ١٠

[١٩] ينظر : نقد ثقافي ام نقد أدبي ،عبد الله الغذامي و عبد النبي صطيف : ٢٩

[٢٠] ديوان المعتمد بن عباد :١٣

[٢١] ديوان ابن حداد : ٣٠٨

(٢٢) .ديوان ابن زيدون و رسائلها ، شرح و تحقيق علي عبد العظيم ، نهظة مصر لطابعة: ١٤٥-١٤٦

(٢٣) فحسبنا: يكفينا، فالوصف والمجاز يغني عن التصريح والبيان، والإشارة تغني عن العبارة. ينظر: المصدر نفسه: ١٥.

(٢٤) ينظر المراة الاندليسية العادات و التقاليد و التحدي و التغير ، م.م. اريج كريم حمد : ٧ جامعة بغداد كلية الاداب بحث منشور .

(٢٥)الحلة السراء لأبن الأبار ، ج٢: ٤٣

(٢٦)ديوان ابن خفاجة الاندلسي :١١٣

(٢٧)ينظر: الحظارة العربية الاسلامية في الاندلس ، سلمى الخضراء الجيوسي ، ط١، بيروت ، ١٩٩٨الجزء الاول : ٥١٧

(٢٨)ديوان ابن شهيد: ٩٨- ٩٩.

(٢٩) ديوان ابن خفاجة : ٩٥

(٣٠) نقد ثقافي ام نقد ادبي عبد الله الغذامي ، عبد النبي اصطيف :٣٣

(٣١) ديوان ابن حزم الاندلسي جمع وتحقيق :عبد العزيز ابراهيم : ٧٦

(٣٢) ينضر : جدوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس ، للحميدي : ١٦-١٨

(٣٣) في حلى المغرب ،علي بن موسى بسن سعيد ،ج١ ، دار المعارف : ١٤٣

(٣٤) في حلى المغرب ،علي بن موسى بسن سعيد ،ج١ ، دار المعارف : ١٤٣

المصادر:

القرآن الكريم

١. المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط٤ ، جمهوريه مصر العربية ، ٢٠٠٤.

٢. مفهوم القيم دراسة دلالية ووظيفيه ، أوبطيل فاتن : ١١ ، مجلة البلاغ الحضاري.

٣. القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، مادة قوم ، رقم : ٧٨٧٤.

٤. معجم متن اللغة ، احمد رضا ، المجلد ٤ ، دار مكتبة الحياة بيروت ، ١٣٧٩ هـ ، ١٩٦٠هـ.

٥. لسان العرب ، لأبن منظور ، ج١ ، دار المعارف.

٦. الانثروبولوجيا و القيم ، سلوى السيد عبد القادر ، دار النشر ، دار المعرفة الجامعية ، سنة النشر ٢٠١٣.

٧. قاموس علم الاجتماع ، محمد عاطف غيث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

٨. دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدي ، م ٨ ، مادة (أمرأة) .

٩. المرأة بيت المتن و الهامش ، الشعر الاندلسي انموذجاً ، م.م الهام مفتن الجادرية ، كلية التربية الجامعة المستنصرية ، مجلة الكلية ،٤١، ٢٠٢١.

١٠. التشابه و الاختلاف ، د.محمد مفتاح ، المركز الثقافي ، بيروت .

١١. علم اجتماع القيم،محمد احمد بيومي،دار المعرفه الجامعيه،١٩٩٠

١٢. ديوان ابان حمديس ، تح د. احسان عباس،دار صادر بيروت

١٣. الرثاء في الادب الاندلسي،حسين يوسف خربوش،رساله ماجستير،جامعه القاهره.

١٤. نقد ثقافي ام نقد ادبي ،عبد الله محمد الغذامي و عبد النبي أصطيف ،دار الفكر ، ٢٠٠٤

١٥. ديوان المعتمد ،تح د. حامد عبد المجيد واحمد بدوي، مطبعه دار الكتب المصريه ١٩٩٧ م

١٦. ديوان ابن زيدون ورسائله ، شرح و تحقيق علي عبد العظيم ، نهضه مصر للطباعه

١٧. المرأة الأندلسية العادات والتقاليد والتحري والتغيير ، م.م أريج كريم حمد :٧ ، جامعه بغداد كليه الاداب، بحث منشور

١٨. ديوان ابن خفاجه الاندلسي ، شرح وضبط نصوصه د. عمر فاروق الطباع ، دار القلم بيروت ، ١٩٩٤م.

١٩. الحضاره العربيه الاسلاميه في الاندلس ، سلمى الخضراء الجيوسي ، ط ١ ، بيروت ١٩٩٨ ، ج ١

٢٠. ديوان ابن شهيد ورسائله ، تح د. محي الدين ديب ، المكتبة المصرية بيروت ، ط١ ،١٩٩٧م

٢١. ديوان ابن حزام الاندلسي ، جمع وتحقيق عبد العزيز ابراهيم ، دار الكتب العلميه ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣

٢٢. المغرب في حل المغرب ، علي بن موسى ابن سعيد ، ج١ ، دار المعارف